ماذا حاولت أن أقول؟

١٣

ليس من السهل أن أنقل حرفياً ما قلت .. أو حاولت أن أقوله ، أمام المحكمة إنما أستطيع أن أقول باعتبارى ــ عندما ترافعت ــ أقرب المحامين لأعمار المتهمين ، أننى تحدثت عن الشباب المصرى المتمزق بين تجربتين ....

تجربة رفعت فيها شعارات . وكان أغلب هذا الشباب يؤمن بها ويدافع عنها حتى حدثت النكسة ... وأوجد ذلك رد فعل عكسيا لدى الشباب وفقدانا للثقة . تأكد فيما بعد عندما بدأ السادات يقول ــ وهو واحد من الذين دافعوا من قبل عن تلك الشعارات ــ إن كل ما سبق كان زيفا وادعاء ... إلى أن اكتشف الشباب وفى ظل حياة هذا الرجل أن ما يقول كذلك كذب وبهتان . وكان طبيعياً فى ظل هذا .. وفى ظل افتقاد القدوة الصالحة أن يلجأ الشباب .. إلى الدين .. إلى الجماعات الإسلامية بخلاف الشباب الذى هرب إلى الخارج ، بحثاً عن لقمة العيش . وحتى الذين حاربوا وانتصروا فى ٦ أكتوبر لم يجدوا فرصتهم فى مصر . وذهبوا إلى كل الدول العربية بحثاً عن دخل يوفرون به شقة ، رغم ما أعطاه هذا الشباب فى حرب الاستنزاف التى كانت ــ وبحق ــ ملحمة بكل المقاييس .

وطلبت من ضمن ما طلبت إحصائية بعدد الشباب المصرى الذى هاجر إلى الخارج ... بل عدد المصريين الذين هاجروا من مصر . فى ظل حكم السادات السعيد والرخاء الذى وعد به الشعب فى ظل الانفتاح والسلام وتعهده بأن يكون عام ١٩٨٠ هو عام الرخاء .

وتحدثت عن كيف حول انتفاضة الشعب فى ١٩٧٧ .. إلى انتفاضة حرامية قادها شيوعيون . وأثبت الحكم ــ حكم القضاء ــ عكس ذلك تماماً . وكيف أن كل من يقول رأيه فى مصر هو شيوعى . أو عميل لدولة عربية يقدم بتهمة التخابر معها لصالحها .

وكيف أن الرئيس المؤمن ، لم يكن إلا مؤمناً بأنه هو مصر ... ومصر هو .. وأنه آخر الفراعنة العظام .. وأصبح الإيمان بتاريخه الذى زيفه هو الوطنية بعينها : وكيف وهو مؤمن زادت فى عهده ــ فى دولة العلم والإيمان ــ الملاهى وتضاعفت إلى أكثر من ٨٠٠ ٪ من عددها .

وتساءلت إن كانت هناك عدالة توزيع فى مصر .. وإن كانت هناك حياة كريمة لأحد فى عهده إلا

للذين شاركوه وسرقوا ونهبوا ... تساءلت عن عدد المصانع التى أنشئت ، فى عهده ... مقارناً بعدد الاستراحات التى بناها . فى الوقت الذى يعاير فيه الشعب بأنه يدعم له رغيف خبزه .

وتساءلت عما إذا كانت أخبار ومشاكل المجتمع فى مصر تأخذ حقها بقدر ما كانت تأخذ أخباره وأخبار أسرته .... وما إذا كان الرجل قد اهتم بالعلم فى مجتمعنا كما اهتم بأعياد الفن بعد أن تم إلغاء الأولى[1] . وعما إذا كان شهداؤنا يتم الاحتفال بهم كما يحتفل بعيده ــ عيد ميلاده والذى أصبح الاحتفال به مساوياً لاحتفال المولد النبوى[2] .

وكيف أن السادات لم يقبل ببطل غيره فى مصر ... وفى الوقت الذى يتسول فيه أبطال أكتوبر الحقيقيون أرزاقهم فى الخارج ترسل اللجان العسكرية للذين هربوا من شرف الجندية إلى الخارج لمساعدتهم فى تعدى المأزق : وكيف أن حرب أكتوبر لم يكن لها إلا بطل واحد[3] وكل من عداه كومبارس .

---

(١) فى نوفمبر ٨٠ علقت فى الشوارع المؤدية من بيته الكائن بشارع كافور بالجيزة وحتى شارع فاطمة رشدى بالهرم حيث قاعة سيد درويش لافتات تقول « السادات فنان مصر الأول » السادات رائد الفن والفنانين ...

(٢) وفى ذات الشهر حضرت زوجته احتفالا أسموه احتفال مصر بعيد ميلاد الرئيس المؤمن بحديقة الحيوان . وفى داخل الحديقة علقت صور للرئيس بخلاف صورة علقت فى داخل الحديقة من جهة كوبرى الجامعة أضيئت بالأنوار مثلما أضيئت كل الأشجار المحيطة بسور الحديقة ولم يعرف أحد السر فى أن تحتفل الحيوانات بعيد ميلاد الرئيس ....

(٣) فى شهر فبراير ١٩٧٤ أقام مجلس الشعب المصرى احتفالاً ضخماً تم فيه توزيع الأنواط والنياشين على المقاتلين المصريين . وفى الوقت الذى علق فيه السادات نجمة ٦ أكتوبر على صدره كأول الأبطال . حرم رئيس أركان حرب القوات المسلحة الذى بدأ القتال ــ حتى شرف أن ينال وساما فاضطر الرئيس الليبى الذى حضر الاحتفال لمنحه وساما باسم دولته . لكن المهم أن الشعب كان يردد أنباء الجيش الثالث فى سيناء . وكيف أنه رغم الحصار يكسب أرضاً جديدة وجد بها مياها يشربها المقاتلون والتى لم يكن مسموحاً بنقلها إلا من خلال قوات الأمم المتحدة وتحت رقابة اسرائيل . واكتسب قائد الجيش الثالث فى هذا الوقت اللواء (الفريق فيما بعد) أحمد بدوى شهرة واسعة فى مصر .

ــ أوقف السادات الفريق أحمد بدوى وسأله :

ــ يالواء أحمد

ــ افندم .

ــ هل نفذت أوامرى بالحفاظ على أرواح أولادى وأبنائى الضباط والجنود أثناء الحصار ؟!

ــ نعم يافندم .

ــ هل حافظت على الأسلحة والمعدات كما أمرتك ؟!

ــ نعم يافندم ..

ــ هل حافظت على معنويات أولادى وأبنائى فى الجيش الثالث كما أوصيتك ؟

ــ نعم يافندم ..

ــ هل كانت تصلهم رسائلهم .. وطعامهم .. وشرابهم ؟!

ــ نعم يافندم .

ــ ألم آمرك بعدم الاستسلام والقتال إذا لزم الأمر حتى الموت .

ــ نعم يافندم .

ــ اتفضل اجلس ياأحمد ....

ولم يكن فى هذا الذى جرى إلا محاولة لطمس أى بطولة أخرى منافسة له .. هو البطل الوحيد . لكنه وهو بهذه الصفة والجيش محاصر أقام احتفالاً ضخماً كان يشبه ليلة من ليالى ألف ليلة لزواج ابنته أحضرت له الطائرات كل أنواع الطعام من أوربا كذلك المطربين . وبعد ذلك يستشهد أحمد بدوى !

وحاولت أن أقدم نماذج عن أغنياء عهده السعيد وكيف اغتنوا ومنهم أشقاؤه . وأبناؤه ...

وحاولت أن أعرض للاستفتاءات التى تمت فى عهده .. وآخرها استفتاء ما أسماه بثورة الديمقراطية عن اعتقالات ٥ سبتمبر . وكيف أن مجلس الشعب .. والصحافة ... وكل أجهزة الإعلام تحت سيطرته الشخصية .

وطالبت بضم مناقشات مجلس الشعب عن الشباب والتى تمت فى ١٩ /١/١٩٨٢[٤]

وطالبت بضم مرافعات النيابة العسكرية فى قضية التكفير والهجرة والتى طالبت فيها النيابة بحرية الأخذ بالشريعة الإسلامية وسرعة تطبيقها .

إدخال مادة الدين فى جميع مراحل دور العلم وفى شتى الفروع .

توجيه أجهزة الإعلام بما لا يمس طبيعة الإسلام وأن يكون الإعداد تحت الإشراف الكامل للمتخصصين فى الإسلام .

أن يتولى الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف مراجعة أسباب التعدد فى الدعوة الإسلامية وجفاف النبع الذى يصب فى حقل التعليم الدينى .

كان ما حاولت أن أقوله مدخلا لازما للقضية كعرض للظروف الموضوعية . وكانت هذه المقدمة تالية لجلسة سابقة يفصل بينهما حوالى أسبوعين . وكانت الجلسة السابقة وما قلته فيها عن اختصاص القضاء العسكرى ، قد فهم من أشخاص القضاة على أنه تجريح لأشخاصهم لأننى كنت قد دفعت بأن قضاة المحكمة لا يمكن اعتبارهم فى الفهم الصحيح للقانون قضاه وطبقاً لقانون الاحكام العسكرية نفسه ...

وفى هذه الجلسة كانت المحكمة تتعامل معى بعصبية بالغة .. وقوطعت سبع مرات . وفى كل مرة أصر على استكمال المرافعة . وعندما وصفت السادات بأنه الرئيس المدمن . وزوجته بسيئة مصر الأولى

---

(٤) فى هذا الاجتماع قال صلاح جلال نقيب الصحفيين وقتها :

إننا أفسدنا الشباب .... والمسئولية لا تقع عليه لأن القرار فى مصر مؤمم ثم نقول إن الشباب فى مصر منحرف وذلك غير حقيقى . إن الإصلاح فى مصر يجب أن يبدأ من الحاكم والحكومة وعندما يشعر الشباب أنه فى مجتمع عادل .. عندما يرى العدالة فى معاقبة الكبار وليس الصغار .

وقال أحمد مرسى :

الذى حدث هو تشويه تجربة منظمة الشباب . وقيل إن هناك مجموعة من الجواسيس من الشباب يتجسسون على آبائهم والحقيقة غير ذلك ... هناك قضايا وطنية أخطرها على الإطلاق كيف نبنى مصر .

وقال عضو آخر :

الغريب أن المتخم والمرتشى والمنافق يتحدث عن الشباب .. الشباب يعيش فى حرمان .. وهو طبيعى عندما يثور . والذى يحدث هو الزج بشبابنا فى السجون .

وقال آخر : هناك تجاهل للشباب من بعض أجهزة الاعلام . خاصة التليفزيون . حدثت مذبحة للقيادات التليفزيون وتحولت الاستوديوهات إلى شلق مفروشة !

ازدادت حدة المحكمة معى . وكان حظى العاثر أنى بدأت المرافعة مبكراً وكانت جلسة سبت ولم يكن قد حضر بعد الزملاء المحامون . ولم يكن فى القاعة الضخمة سواى كمحام . ولم تكن الحراسة الموجودة فى القاعة قد خفضت لتكون عادلة ومتساوية مع محام واحد .. حتى وقف عبد الحميد وبقية المتهمين ليحتجوا لمقاطعة المحكمة المستمرة لى . وطلب عبد الحميد أن أمتنع عن المرافعة . وبالفعل جلست احتجاجاً على موقف المحكمة منى . ورفعت الجلسة ... وتوجه القضاة العسكريون إلى غرفتهم واقتربت من القفص لأحدث عبد الحميد . وكان لازما أن أستكمل مرافعتى . كنت قد اتخذت لنفسى خطا مخالفا ... هو أن أحاول أن أثبت للمحكمة وللمتهمين أنفسهم أن رصاصاتهم لم تقتل أو تصيب من اتهمتهم النيابة بقتلهم وإصابتهم . وكان عبد الحميد ينتظر ذلك بشغف لأنى أقسمت له أنى سأثبت ذلك حتى يكفوا عن صيامهم . لأنتهى بمفاجأة أخرى بالنسبة لهم . لم أحدثه عنها وهى أن ثمة رصاصات أخرى أصابت السادات نفسه وقتلته .

□□

كان باقيا على انسحاب إسرائيل من سيناء حوالى ستة شهور من تاريخ الاغتيال ....

كان السادات قد وقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى بعد وفاة عبد الناصر وبعد ٥ مايو ١٩٧١ . وفجأة ألغى هذه المعاهدة وأصبح السوفيت أشد أعداء السادات . فهل يلغى اتفاقية كامب ديفيد كما فعل مصطفى النحاس بمعاهدة ٣٦ .

٦ أكتوبر هو يوم الانتصار الذى بسببه أصبح السادات بطل الحرب ، بطل العبور ... فهل يكون الاغتيال بهدف القضاء على هذا اليوم .

فكرت ومعى البعض باحتمال أن تكون إسرائيل وراء عملية اغتيال السادات ، كانت عقولنا وعواطفنا ترفض الفكرة .... لأنه لا يمكن ألا يكون خالد ورفاقه من العناصر الوطنية الشريفة .

وكان لنا أن نطالع اتفاقية كامب ديفيد بملاحقها (٥)

---

(٥) فى ١/٥/ ١٩٨٣ (عيد العمال) قال السادات : « أمريكا عايزة اسرائيل عن طريق المفاوضات تاخد اللى ماخدتوش سنة ١٩٦٧ . هى ما قدرتش تحقق حاجة بالهزيمة اللى حصلت سنة ٦٧ ابداً . احتلت أرض صحيح لكن ماهزتش ارادتنا ابداً . ماخلتناش نسلم . ماخدتش منا توقيع حتى على مجرد الاعتراف بأى شىء ابداً . الحل السلمى الامريكى ليس إلا خرافة جديدة . ليه ؟ علشان تحقق لإسرائيل عن طريق المفاوضات اللى ماقدرتش اسرائيل تحققه عن طريق المعركة العسكرية . احنا مش حنفرح بفتح القناة وضياع القضية . مفيش حل جزئى .. مفيش حل منفرد مع مصر لوحدها . مفيش مفاوضات وآدى موقفنا واضح .. برضه بأكرر لا حل جزئى .. لا حل مرحلى .. لا حل منفرد .. لا مفاوضات . واضح » ويأتى الملحق العسكرى لاتفاقية كامب ديفيد :

م ٢/٥ : لايجوز لمصر أن تنشىء أى مطارات حربية فى أرض سيناء .

م ٣/٥ : لايجوز لها أن تستعمل المطارات التى ستجلو عنها إسرائيل فى أغراض حربية .

م ٥/٤ : لايجوز لمصر أن تنشىء أية موانى عسكرية فى أى موقع على شواطىء سيناء .

م ٦/٤ : لايجوز لمصر أن تستخدم أسطولها الحربى بالموانى التى بها .

م ٢ فقرة ٢ بند ٢ ، ٣ : لايجوز لمصر أن تحتفظ شرق قناة السويس وإلى حد الممرات بأكثر من فرقة مشاة لايزيد مجمل أفرادها على ٢٢ ألف فرد ولاتزيد اسلحتها عن ... (وحددت الاتفاقية عدد كل قطعة سلاح) .

لكن وقبل إغتيال السادات بعام واحد : يقول لصحفية إسرائيلية (ميرا افريخ) فى حديث أجرته معه فى طائرته بين ميت أبو الكوم والقاهرة . إن قرار السلام وحقن الدماء بين مصر وإسرائيل كان يراوده منذ سنة ١٩٦٨ . وأن هذا القرار قد اختمر نهائياً فى رأسه عندما تولى أمانة الحكم فى سنة ١٩٧٠ .

إن إسرائيل تدرك أن صراعها فى مصر .. مصر بالذات هو صراع وجود لاصراع حدود ، وليتحقق لها ذلك يتعين أن لايكون لمصر أى وجود . والحرب ليس شرطاً أن تكون بالسلاح .. يمكن أن يكون الانتصار بهزيمة الإرادة لدى العدو . ليتحقق للمنتصر ما يريد ... ولاشك أن لإسرائيل وسائلها وأساليبها لتحقيق مثل هذا الانتصار ..غزو فكرى ... غزو اقتصادى ... تمزيق الشعب ... السيطرة عليه .... ، رغم أنهم حتى هذه اللحظة مازالوا يدركون عن إيمان أن مصر جزء من وطنهم القومى ... ومازالت خريطة من النيل إلى الفرات بمقر برلمانهم ... ويكفى إسرائيل أن مصر حتى هذه اللحظة

ـ ولايجوز إجراء مناورات تدريبية أبعد من خطوة عن الحدود المقررة لها .

ـ لايجوز لمصر أن تكون لها شرق الخط المشار إليه أية قوة عسكرية مقاتلة أو بأسلحة قتالية من أى نوع .

ـ يبقى بالى سيناء منزوع السلاح (أربعة أخماس سيناء) . لأن باقى سيناء وبعمق ٣٣ كيلو متر من الحدود الشرقية لايحق لمصر أن تبقى فيها إلا قوات شرطة مدنية فقط وقال السادات فى ١٩/ ٣/ ١٩٧٤ لمجلة تايم الأمريكية :

إن الحديث عن نزع سلاح سيناء يجب أن يتوقف . فإذا كانوا يريدون نزع سلاح سيناء فسوف أطالب بنزع سلاح إسرائيل كلها . كيف انزع سلاح سيناء إذا كان من الممكن أن تكون عرضة لتهديدهم فى ٦ ساعات .

وفى ٤/ ٤/ ١٩٧٤ كان قد سأله مدير تحرير جريدة نيوزويك الأمريكية :

لماذا يكون نزع السلاح من سيناء إنتهاكا للسيادة المصرية . فيقول السادات إنهم يستطيعون بذلك العودة فى أى وقت يريدون خلال ساعات .

وكان السادات يرفض اقامة علاقات دبلوماسية مع إسرائيل قبل الجلاء الكامل عن سيناء .

فى ١٧/ ٢ /١٩٧٧ فى مؤتمر صحفى مع فانس وزير خارجية أمريكا قال السادات :

(إذا كنت تسألنى عن إقامة العلاقات الدبلوماسية أو إقامة الحدود المفتوحة فإن ذلك يعتبر فرضاً للسلام . وهى نظرية بن جوريون القديمة لفرض السلام على العرب وعندما يسأله الصحفى : هل بعد اتمام هذه المرحلة ستكون مصر على استعداد للتعامل مع اسرائيل .

يقول السادات : إن ذلك أمر من صميم السيادة ياعزيزى !

وبعد أربعة أيام من هذا التاريخ (٢١/ ٢/ ١٩٧٧) يقول محطة التلفزيون البريطانى الخاصة :

إذا كان الأمر كما يقول الاسرائيليون أنهم يريدون تبادل العلاقات الدبلوماسية أو التبادل الاقتصادى أو فتح الحدود أو ما أشبه فإن هذا ليس شكلاً من أشكال السلام . إنما هو شكل من فرض شروطهم . ذلك أننا عندما تنتهى حالة الحرب رسمياً ثم نقوم جميعاً بالتوقيع على ذلك فإن هذا معناه أن كل شىء بدأ يصبح طبيعياً . والحدود المفتوحة أو المبادلة الاقتصادية . أو العلاقات الدبلوماسية وما أشبه مسألة سيادة بالنسبة لكل بلد . وأنا لاأعتقد أن أحدا قد قام بعد أى حرب بوضع اتفاق سلام يقضى بأن تبدأ العلاقات الدبلوماسية . إنهم يفرضون شروطهم مرة أخرى . حسناً . نحن لانوافق على هذه الشروط .

وفى ٧/ ١٩٧٧/٤ فى مؤتمر صحفى بأمريكا قال :

عندما سئلت أن ابدأ علاقات دبلوماسية وأقيم حدوداً مفتوحة قلت لاأستطيع أن أفعل ذلك . لأن ذلك يعتبر فرضاً للشروط علينا .

وتأتى معاهدة كامب ديفيد . وتنص الفقرة الثالثة من المادة ٣ منها على :

تلتزم مصر بتبادل العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية مع إسرائيل (يتم ذلك بالفعل قبل تمام انسحاب إسرائيل من سيناء) . وأن تعقد مع إسرائيل اتفاقاً تجارياً بهدف إنماء العلاقات الاقتصادية وأن تفتح حدودها للاسرائيليين وسياراتهم وتسمح لهم بحرية التنقل داخلها (م ٤ من البروتوكول) وأن توقع مع إسرائيل اتفاقاً للطيران واتصالات بريدية وتليفونية وتلكس وخدمات نقل الأرسال التليفزيونى وسكك حديدية وأن تبيع لها البترول (م ٦/ ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، من البروتوكول) .

لاتستطيع أن تطالب بتعويض من إسرائيل مقابل استنزافها لأراضى سيناء وبترول خليج السويس ... واستغلال آثارها فى السياحة طوال فترة احتلالها لسيناء . بل استطاعت فى ظل هذا السلام أن تجعل من القدس عاصمة لها وهو ما لم تكن تستطيعه فى ظل الحرب مع مصر.

قبل وفاة السادات تحديداً فى ١٩٨١/٥/٢٩ أجرى مراسل معاريف فى القاهرة حوارا مع السيد / نائب رئيس الجمهورية لأنه كما قال الصحفى عنه أنه الرجل رقم اثنين والذى سيكون بحسب دلائل كثيرة أحد المرشحين المضمونين ليحل محل السادات فى الوقت المناسب[٦] . وأطلق عليه الصحفى أنه دكتور أكتوبر .

ولكن مبارك فى هذا الحديث يقول للمراسل الذى سأله : إن كانت مصر ستمكن قوات التدخل السريعة الأمريكية فى مطارات سيناء . لابد أنكم نصحتم الأمريكيين من أجل استخدام المطارات . لن توجد حساسية فى سيناء . لن نسمح بتنفيذ مشروعات مشتركة فيها لا للاسرائيليين ولا للأمريكيين ولا لغيرهم سيقول الناس خرج الاسرائيليون وجاء الأمريكيون .

.. إننا بعد تمام الانسحاب لن نغير ماتفقنا عليه والأيام ستثبت ذلك ... ولقد قدم وزير زراعتكم إلى هنا .(شارون) لماذا نحن مستعدون للتعاون هل سنبدأ فى التعاون الزراعى لنوقفه فى إبريل . هل سنلغى فى ابريل خطوط الطيران بيننا .. إن الرئيس أعلن فى الكنيست أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب ... إن الحروب انتهت . ولن نوافق على أن نكون أداة فى أيدى أية جهة تريد عمل مشاكل مع إسرائيل[٧] .

فى ١٩٨١/٩/١١ قبل الاغتيال بأقل من شهر أجرت نفس الصحفية حواراً مع البروفسيور شمعون شامير الذى كان على وشك زيارة القاهرة وقالت عنه الصحفية : إن المصريين استقبلوه بإعجاب فى شوارع القاهرة !! لأنه يحظى بشهرة كبيرة وإهتمام كبير . وقال شمعون هذا .

العلاقات بين المعارضة والسادات بعيدة جداً عن العلاقات القائمة بين قوى ذات حجم متساو تتصارع حول السلطة فى مصر . المعارضة فى مصر لم تناضل حتى الآن ضد السلطة ولكنها موفقة فى إرباك أعمال الحكومة . المعارضة فى مصر غير منظمة كقوة محاربة . ما قام به السادات هو إجراء وقائى .

---

(٦) كان نائب الرئيس عائداً من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوربية وقالت الصحف وقتها إنه نجح فى مباحثاته مع الولايات المتحدة .

(٧) الفقرة الأخيرة خاصة بسؤال عما إذا كانت مصر ستدخل الحرب مع سوريا لو دخلتها الأخيرة ضد إسرائيل . برغم أن السادات فى ١٩٧٥/٣/٢٣ كان قد قال لمجلة روز اليوسف المصرية « إن هذا الانتصار (أكتوبر) ما كان ليتحقق لولا تضامن الصف العربى . قبل وأثناء الحرب . وكذلك قال فى ١٩٧٥/٦/٢٢ لجريدة الأنوار اللبنانية « أما إن إسرائيل تسعى لتحقيق حل منفرد مع كل دولة عربية فهذا أمر معروف . والسياسى العربى الذى لايعرف ذلك لايستحق أن يستمر فى موقعه . هذا هدف إسرائيلى وعلينا ألا نعيره أى اهتمام «

— وتنص المادة ٦ فقرة من اتفاقية السلام ... يقر الطرفان بأنه فى حالة وجود تناقض بين التزامات الأطراف بموجب هذه المعاهدة وأى من التزاماتها الأخرى . فإن الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة هى التى تكون نافذة وملزمة . ومعروف طبقاً للقانون الدولى أن الاتفاقيات التى تكون أطرافها أكثر من دولة تسبق الاتفاقيات الثنائية .

ويذهب شمعون إلى تحليل القوى السياسية فى مصر ويقسمها إلى إتجاهين .

١ ــ الاسلام المتعصب المتطرف !! وربما يمر اليوم باحدى مراحل اليقظة الدورية لهذه القوة .

٢ ــ العناصر اليسارية والناصرية . وهم يقرأون بحماس جريدة الشعب التى يصدرها حزب العمل الاشتراكى وأغلقها الآن السادات وهى جريدة تعبر عن الاتجاهات السائدة بين الطبقة المثقفة المصرية . وهذه المعارضة تربط بينها ثلاثة مكونات :

- ــ الانفتاح الاقتصادى الذى يرمز إلى ثراء الأثرياء وفقر الطبقات الشعبية . إن نظام السادات (هكذا يقول) قد خلق فى مصر طبقة من الأثرياء الجدد عديمى الحساسية !!
- ــ الادعاء بأن السادات يبيع مصر للولايات المتحدة .
- ــ اتفاقية السلام مع إسرائيل .

إن السادات ــ كما يقول شمعون ــ يصنع سلاما مع إسرائيل بسبب الانفتاح الاقتصادى فى مصر وبسبب العلاقات مع أمريكا . واستقرار مصر مرتبط باستمرار حكم السادات . وما سيحدث للسلام بعد السادات فإنه يقول :

فى المائتى سنة الأخيرة ينقسم التاريخ المصرى إلى فترات زمنية وكل فترة تحوى شخصية زعامية رئيسية ومحمد على حكم مصر ٤٥ سنة والسادات فى منتصف حكمه وبعيد عن النهاية ... وأنه يستحيل على أى تيار معارض أن يصل إلى السلطة فى مصر !! وإن لديه تأكيدات بذلك .. وأنه من المعقول الافتراض أن الذى سيصل إلى السلطة هى عناصر تواصل طريق السادات لا عناصر تقوم بتحول راديكالى .. ويحددها بأحد رجال الفريق الحاكم الحالى أو أحد رؤساء الجيش .

كان الاهتمام الإسرائيلى بمستقبل السادات السياسى قد زاد بعد أحداث سبتمبر ..

وتجرى الصحف الإسرائيلية أحاديث مع سفير مصر فى إسرائيل الذى يؤكد أن ما فعله السادات أيده فيه الشعب بالكامل ... وأنه ليس هناك عداء تاريخى بين اليهود والمسلمين . ومن يعارض السلام فإنه يحيى السامية . ويباهى بأن عدد رحلات الطائرات ما بين مصر وإسرائيل يفوق عدد الرحلات الجوية بين مصر وعدد من الدول العربية . ويعدد السفير الاتفاقيات المتعددة التى وقعتها مصر مع إسرائيل . وزيارات أعضاء مجلس الشعب . وأنه فى ٩/١٣ سيحضر إلى تل أبيب وفد مصرى مكون من ٤٠ من كبار المسئولين فى الوزارات المختلفة ليبحثوا تحقيق سياسة التطبيع فى كافة المجالات .

فى ١٩٨١/ ٩/١٨[٨] ينادى اسحاق روفكين أحد الكتاب الاسرائيليين بأن تلعب إسرائيل دوراً فى دعم موقف السادات فى مواجهة معارضيه ودعماً لمسيرة السلام لأن السادات ــ على حد قوله ــ قد نجح فى تحويل مصر إلى جزء من النظام الأمريكى فى المنطقة والعالم . لأن السلام مع مصر هو مرحلة على

---

(٨) معاريف .

طريق السلام الشامل الذى يعتبر من وجهة نظره الضمان الوحيد للاستقلال السياسى والضمان لحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية لاسرائيل ..

● بعد الاغتيال بثلاثة أيام :

يقول أحد كبار الكتاب المتخصصين فى إسرائيل فى ذات الجريدة :

المؤامرة التى دبرها أولئك الذين اغتالوا السادات لم يتم بعد حصرها أو كشفها . وحتى الان لانعرف إن كان هذا العمل قد قام به بعض الأفراد أم أنه بداية لقيام حركة شعبية كبيرة وما إذا كانت هناك عناصر أجنبية مشتركة فى عملية الاغتيال .

ويقول عن السادات .

إنه كسب القلوب فى الغرب وخاصة بسبب أساليبه المتعبة التى كانت جزءاً من الدور الذى قام به (التأتأة) المقصودة .. طريقة استخدام البايب . حالات الصمت الطويلة ... لقد كان أكثر سياسى متقلب فى عصرنا ... إنه الدعامة الرئيسية للغرب فى المنطقة بغيره ستصبح مصر شيئاً آخر ... وأى وريث لحكمه لن يستطيع أن يجاريه أو أن يعمل مثله .

إنه فى الأسابيع الأخيرة من حياته أصبح إنساناً خائفاً .. إجراءاته ضد المعارضة دلت على اهتزاز ثقته الشخصية .

ويقول عن مجموعة الاغتيال :

لايعرف أى شخص إذا كانت المجموعة الصغيرة من الجنود التى خرجت من العرض لاغتيال السادات قد اعتزمت إبعاد السادات دون المساس بنظام حكمه . إن هذا مجرد تخمين . من يقوم باغتيال سياسى لايمكن أن يكون قصده بشكل عام عقاب ضد شخص واحد ولكنه يقصد تغيير سياسة خاسرة . تغيير نظام الحكم الذى يتبع هذه السياسة !!

بعد ثلاثة أيام من الاغتيال يكتب صحفى ، كان فيما يبدو قريباً من الأحداث فى القاهرة . بل وبالقرب من السادات نفسه .

يتذكر الكاتب :

فى طائرة هليكوبتر تحلق فوق البقعة التى اختارها السادات لتكون مدينة تحمل اسمه ، تطلع نحوى السادات وكأنه يستيقظ من حلم ، إنه قبل حضوره إلى هنا قرأ كل ما نشر عن سدى بوكر (مستوطنة إسرائيلية) وعندما زرت بئر سبع تذكرت نبوءة بن جوريون مؤسس إسرائيل وآماله لتعمير صحراء النقب .

كنا خمسة فى الطائرة .. هو ونائبه مبارك . صهره عثمان .. أنيس منصور وأنا .

قبل إقلاع الطائرة من مدينة السادات أقلعت قبله طائرتان وبهما رجال أمن مسلحون للدفاع حتى فى السماء (هكذا يقول الصحفى) . حتى هبوطها بقصر المعمورة .

يرى الصحفى أن شيئاً واحداً قد ضايق السادات وبشكل حاد فى السنوات الأخيرة وهو فقدان تاج الزعامة فى العالم العربى بسبب معاهدة السلام . وكان يقارن بين نفسه وعبد الناصر والذى ظل رغم حالات فشله المتوالية (من وجهة نظر السادات والكاتب) يشكل رمزاً للقومية العربية وأنه حتى فى أسوأ فترة له بعد هزيمة يونيو ،حافظ ناصر على زعامته .. ودعم مكانته . أما السادات فهو غير ذلك .. اتفاقية السلام معنا قادت مصر إلى عزلة لم يسبق لها مثيل . وأنه حتى المؤتمر الإسلامى العالمى الذى رأسه السادات ذات يوم إبان حكم ناصر ، أغلق أبوابه فى وجه السادات . وقد أضر هذا بالطبع بمكانة مصر الدولية التى لم تعد تستطيع الادعاء بأنها تمثل الدول العربية كلها أو جزءا منها .

ونشرت الصحف الإسرائيلية هذه المعلومات :

ـ إنه تمت اعتقالات داخل الجيش قبل الاغتيال بأسبوع .

ـ إنه بالرغم من الاعتقالات فإنه لم يتم اكتشاف المؤامرة التى تم تدبيرها .

ـ إن القائمين بالاغتيال قد حصلوا على مساعدات إدارية من زملائهم فى سلاح المدفعية وربما كذلك من أسلحة أخرى .

ـ إن السادات كان قد قلل من زياراته لوحدات الجيش فى الشهور الأخيرة بعكس ما كان .

ـ إن السادات ربما أجل الصراع مع المجموعة المتذمرة فى الجيش ،وتأجيل المواجهة معها إلى ما بعد الانسحاب الإسرائيلى من سيناء .

ـ إن على أمريكا أن تتدخل فى الأسابيع القادمة بشكل متزايد بهدف دعم الرئيس الجديد لوضعه .

ـ إن ابتعاد السادات يثير مسألة مصير معاهدة السلام مع إسرائيل .

ـ إن حسنى مبارك عندما سأله ذات الصحفى فى إحدى رحلات السادات بالطائرة عن الاتصالات السرية التى كان قد أجراها مع حكام السعودية والعواصم العربية تهرب مبارك من الاجابة وبعد إلحاح عليه قال « إن من حق مصر إقامة إتصالات مع أى عنصر ترى ، وليست مطالبة بإبلاغ أى شخص بذلك » .

وبعد خمسة أيام فى ١١/١٠/ ١٩٨١ قالت جريدة أخرى (دافار) :

إنه لأحد ينكر أنه بوغت بقتل السادات . قبل زيارته للقدس كان شائعاً أن أى رئيس عربى سوف يوقع معاهدة سلام مع إسرائيل سيقتل .

إن الاتصالات التى جرت أثناء الحرب وبعدها معنا من الجانب المصرى تمت فى براعة سياسية غير عادية . إننا نشكر رجال الأمن فى مصر أنهم حافظوا على الرجل طوال ثلاث سنوات ونشكرهم على إخلاصهم وتفانيهم .

إن ماضى حسنى مبارك ليس شاهداً موثوقاً به على أعماله لافى الحاضر ولا فى المستقبل . لكن هل السادات قبل موت عبد الناصر هو الرئيس السادات .

وفى ٢٠/١١/ ١٩٨١ تعرض واليا شاحورى فى جريدة (عل همشمار) لإحدى مناورات النجم الساطع بين القوات الأمريكية والمصرية ، وتصف كيف كانت المنافسة شديدة فى الصحراء الغربية بين جنود الفرقة ٢٤ مشاة المصرية والفرقة ٨٣ المحمولة جواً الأمريكية التى تضم بعض المجندات . إن الجنود المصريين استقبلوا الأمريكان بتحفظ . وإنهم عندما ينزلون المدينة يرتدون ملابسهم المدنية . إن الجيش الأمريكى يعيش فى معسكرات بالقرب من العاصمة[٩] . إن المصريين فى انتظار لما سيقوله مبارك .

وفى ٢٣/١٠/ ١٩٨١ كتبت يديعوت أحرنوت :

ـــ إن قبر السادات يحرسه الجنود الذين لم يستطيعوا أن يحافظوا على حياته .. مهمتهم الآن أن يحافظوا على جثمانه . إنهم يحرسونه من الجماهير التى ستأتى إليه . لكن ليست هناك ضرورة لوجودهم فالجماهير لن تأتى إلى هذا المكان . إنهم فى شوارع القاهرة يجتهدون الآن فى رفع صور السادات ليضعوا مكانها صور مبارك . الأسى والحزن يمكن أن نلحظه فى بيت واحد فى الجيزة . الجنود والأمن يغلقون الطريق إليه . جيهان تقص على زوارها ربما للمرة الألف قصة موت السادات . وعلى بعد أمتار من البيت يشترى المصريون الحلاوة والبقلاوة ....

وتقارن الجريدة بين جنازة عبد الناصر وجنازة السادات ... ولماذا كان الحزن مختلفاً عند موت عبد الناصر ولماذا اندفع الملايين إلى الشوارع ....

وتتساءل الجريدة :

فى القاهرة التى وصل فيها عدد رجال الأمن لأكثر من مائة ألف . كيف حدث الاغتيال .. كيف نجح القتلة .. إن القتلة جاءوا من وسط الشعب .. من رحم الجيش .. ليسوا سوريين أو ليبيين أو فلسطينيين . وكذلك ليسوا إسرائيليين والشعب المصرى لايسأل كثيراً عن الرئيس الجديد .. فخطابه فى مجلس الشعب كان رائعا .. لقد ذكرهم بلهجة عبد الناصر ... والتليفزيون يتحدث عنه .. عن أنه صاحب الضربة الأولى . فأسامة الباز الذى كان من القلائل الذين يتصرفون بوقاحة أمام السادات . وكان قد ضغط عليه فى الاسماعيلية حتى لايوافق على المقترحات الاسرائيلية أصبح مديراً لمكتب الرئيس الجديد ويبدو أنه كاتب أول خطاب للرئيس الجديد .

وتعلن إسرائيل الحداد على السادات ... وهى التى أذاعت ليلة موت عبد الناصر أغانى الأعياد .. تطلق اسمه على أحد شوارعها .. لقد فهمت أنا شخصياً وبصرف النظر عن أية مناورات .. ولعلمى أن أسرار الدولة لايمكن أن تعالج أو تنشر فى الصحف وبخاصة لو كانت تتعلق بخط الدولة فإن موت السادات هو خسارة عظيمة لإسرائيل . ولايمكن بالتالى فى مصلحتها أن تسبب لنفسها هذه الخسارة .

---

(٩) أشارت إلى مطار غرب القاهرة الذى يبعد عن القاهرة حوالى عشرة أميال .

ولايمكن حتى التسليم بأنهم ساهموا فى قتله بقبولهم مبادرته فى نوفمبر ١٩٧٧ . صحيح يومها حمل الرجل أكفانه وتوجه إلى هناك ... لكن ساعة الدفن تأخرت إلى عشرة أكتوبر ١٩٨١[١٠] .

كذلك طبقاً لمذكرة التفاهم الموقع عليها من الرؤساء الثلاثة (كارتر ــ بيجين ــ السادات) والتى نشرت فى ١٩٧٩/٣/٣٠ فإن من حق الولايات المتحدة :

١ ــ أن تتخذ ما تراه ملائما من إجراءات فى حالة حدوث انتهاك لمعاهدة السلام . أو تهديد بالانتهاك بما فى ذلك الاجراءات الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية .

٢ ــ تقدم ما تراه لازماً من مساندة لما تقوم به إسرائيل (إسرائيل) من أعمال لمواجهة مثل هذه الانتهاكات . خاصة إذا ما رأت أن الانتهاك يهدد أمن إسرائيل بما فى ذلك – على سبيل المثال – تعرض إسرائيل لحصار يمنعها من استخدام الممرات المائية الدولية أو انتهاك بنود معاهدة السلام .

٣ ــ أن تعمل الولايات المتحدة بتصريح ومصادقة الكونجرس على النظر بعين الرعاية لطلبات المساعدة العسكرية والاقتصادية لاسرائيل وتسعى لتلبيتها .

وواضح من هذا أن مصر قبلت والتزمت بوضوح بتحالف عسكرى أمريكى إسرائيلى ضدها .. وهذا ما دعا المحامين فيما بعد للقول بأن السادات ارتكب جريمة الخيانة العظمى فى حق شعبه . وكان من المتعين عقابه بمواد قانون العقوبات ابتداء من المادة ٧٧ عقوبات .وما بعدها .

والغريب واللافت للنظر أن السادات وقبل انسحاب إسرائيل من سيناء فى المرحلة قبل الأخيرة أعلن حالة الطوارىء فى الصحراء الغربية بحجة الخطر القادم من ليبيا وقام بنقل غالبية القوات الضاربة المصرية إلى هناك .. إلى غرب النيل ... فهل كان ذلك تنفيذاً لنصوص سرية فى المعاهدة . تضمن بها إسرائيل أن أى قوات ضاربة مصرية يمكن أن تتصدى لها إذا احتلت سيناء يتعين عليها اجتياز الصحراء الغربية ، ثم عبور النيل .. ثم القناة بعد ذلك !! خاصة إذا ما كان ظاهراً للعيان أن كل قواعد الصواريخ فى المسافة من شرق النيل وحتى غرب القناة لم يعد لها وجود ؟!

□□

وكانت آخر زيارة قام بها السادات لأمريكا فى شهر أغسطس سنة ١٩٨١ ... كان قبلها قد وصل إلى أشد حالات الهياج ... وأصبح يهدد كل الناس ..

---

(١٠) من المهم القول بأن موت السادات لم يكن ليؤثر على عملية السلام ... لأن إسرائيل استطاعت أن تضمن كيف تستمر المعاهدة . فالمطالع للملحق العسكرى للمعاهدة حيث المادة السادسة منها يجد أن السلام مفروض أن تضمنه قوات الأمم المتحدة الذين سيتواجدون على الأرض المصرية فقط وستراقب هذه القوات كل نشاط أو تحركات للقوات المصرية إبتداء من قناة السويس وحتى الحدود الدولية . والغريب أن قوات الأمم المتحدة يتعين أن يصدر بتشكيلها قرار من سكرتير الأمم المتحدة . لكن فى هذه المعاهدة اتفق على أن تتفق مصر وإسرائيل على إختيار هذه القوات . وفى حالة الاختلاف وهوما حدث فعلاً تقوم أمريكا بهذه المهمة . ولايجوز إطلاقا سحب هذه القوات إلا بموافقة جماعية من الدول الخمس الكبرى فى مجلس الأمن وهو ما يبدو مستحيلا .

وتضاف لوثائق المعاهدة رسالة من رئيس أمريكا للسادات وبيجين مضمونها أنه فى حالة انتهاك المعاهدة ستقوم الولايات بإتخاذ الاجراء الذى تراه لازماً لتحقيق الالتزام بالمعاهدة . وهى ستقوم بعملية الاستطلاع الجوى حسب الملحق العسكرى « مهمة قوات الأمم المتحدة » .

عندما عاد ... وبعد أقل من أسبوعين أصدر قرارات الاعتقال فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ ... قال الناس يومها إن الرجل اتفق مع الأمريكان على ذلك ... وأنه ما كان يستطيع أن يفعل ما فعل لولا موافقة أمريكا ..

فى مصر كانت نقابة المحامين قد أصبحت أمراً مستعصياً عليه .. أصبحت ميداناً يحاربه منه كل الخصوم السياسيين .

ـــ تصدت له فى مشروع هضبة الأهرام . وكشفته .

ـــ تصدت له فى قانون حماية القيم من العيب .

ـــ تصدت لكل تصرفات السادات .. وعرت اتفاقية كامب ديفيد .

ـــ تصدت لمشروعه بمد مياه النيل لإسرائيل ..

حرك جحافل من بلطجية ادعى أنهم من الحزب الوطنى لمجرد أن قائدهم كان أحد كبار رجال هذا الحزب .. واعتدوا على المحامين والمحاضرين فى ندواتهم . وأصبحت نقابة المحامين التى رفعت علم فلسطين فوق مبناها فى ذات لحظة رفع علم إسرائيل فى الدقى ... بل وأصبح تقليداً حرق علم إسرائيل فى ذات المناسبة فى ٢٦ فبراير من كل عام . بل أجبر المحامون المجلس المعين فيما بعد على إعادة رفع علم فلسطين .

كان السادات قد أصبح نقيباً لكل أنواع النقابات فى مصر .. حتى نقابة الصيادين . ارتدى زى كل أصحاب المهن . وكانت أمنيته أن يزور نقابة المحامين . وأن يرتدى روب المحاماة كما فعل عبد الناصر سنة ١٩٥٤ . ولم يستطع أن يزور أى نقابة فرعية للمحامين . حاول فى الاسكندرية أن ينظم لقاء بينه وبين المحامين . لكنه لم يستطع الذهاب إلى مقر نقابتها . نظم الاجتماع فى مبنى محافظة الاسكندرية وألبسوه روب المحامين الذى كان قد تم تفصيله عن طريقه .. وسجل التليفزيون اللقاء الذى لم يحضره عدد يتجاوز العشرين من المحامين .

فى نفس الفترة كانت قد تشكلت فى القاهرة جبهة وطنية تضم أغلب القيادات السياسية المصرية من كل الاتجاهات ... تشكلت اللجنة القومية للدفاع عن الحريات . وتشكلت اللجنة القومية للدفاع عن الثقافة .

أرادت إسرائيل أن تختبر قدراتها اشتركت فى معرض القاهرة للكتاب ... تظاهر الشباب المصرى عندما رأى سفير إسرائيل يصوره التليفزيون الإسرائيلى وهو يضع حذاءه على علم فلسطين . واعتقل بعض الشباب . وتعرض للتعذيب . ووقف المحامون .. وانتصر لهم القضاء .

فى ٢٦ يونيو كان مقرراً عقد الجمعية العمومية العادية للمحامين لمناقشة الميزانية ... عند الفجر امتلأت شوارع القاهرة وميادينها الرئيسية بلافتات تعلن تأييد المحامين للسادات . قام شباب المحامين بإزالة كل اللافتات ... وانعقدت الجمعية العمومية .. وناقشت جدول أعمالها والذى كان يتعين عليه

زيادة المعاشات . فى العاشرة صباحاً حضرت جحافل تقتحم النقابة وهى تهتف يسقط المحامون الخونة .. يسقط رئيس مجلس إدارة المحامين . وأعضاء الحزب الوطنى من المحامين يحاولون تصحيح الهتافات دون جدوى ... وأصيب من أصيب من المحامين والمحاميات .

وفى نشرة الثانية والنصف كان أول خبر .. إن المحامين برئاسة فكرى مكرم عبيد الذى لم يكن مقيداً فى هذا الوقت بجدول المحامين المشتغلين قد صححوا المسيرة . وأعلنوا تأييدهم للسادات . وأسقطوا نقيبهم ومجلسهم . ولم يذع البيان أو ينشر فى المرات التالية بهذه الصيغة بعد أن عرفوا أن الذى صاغ الخبر قد تعمد إيقاعهم فى مأزق وبعد أن كان قد سلم للمسئول فى الإذاعة والتليفزيون إنذاراً موقعاً عليه من نقيب المحامين فى الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه ومختوماً بخاتم النقابة .

فى اليوم التالى بمدينة دمنهور ، يقول السادات إن المحامين الشرفاء ! كعهده بهم قد صححوا المسيرة . وباهى بديمقراطية إسرائيل . وساعتها فى نفس اللحظة كان المحامون قد علقوا لافتاتهم حول أسوار النقابة تعلن الحقيقة للشعب بعد أن خرجت الصحف القومية لتزيف الحقيقة . وتولى المحامون حراسة لافتاتهم طوال الـ ٢٤ ساعة معتصمين داخل مبنى النقابة . ولم ينفض هذا الاعتصام أبداً إلا بعد الخامس من سبتمبر ١٩٨١ .

كان هذا الصراع الذى يتسع مداه كل يوم ، كفيلًا بنظر البعض إلى القول بأن أمريكا يمكن أن تنفض يدها عن السادات ، لأنه يسىء إليها كدولة تدعو للديمقراطية . خاصة بعد أن سقط شاه إيران بثورة شعبية .

لكن كان الرد على ذلك أن أمريكا لاتعنيها ديمقراطية شعب آخر ،بقدر ما يعنيها فى المقام الأول سيطرتها على هذا الشعب .. أمريكا لايهمها حرية شعب بقدر ما يهمها فى الأساس ارتباط النظام سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بها ... وأن يكون تحت سيطرتها . لأن الديمقراطية الحقيقية فى النهاية قد تكون ضد مصالحها لأنه لو كانت هناك ديمقراطية ما كان يمكن أن يقوم رئيس مصر بالموافقة على انطلاق طائرات أمريكية من أرض مصرية لضرب دولة إيران .

شيلى .. السلفادور .. وعديد من بلدان أمريكا اللاتينية أسقطت نظم الحكم الديمقراطية فيها لأن العداء لأمريكا فى هذه الدول قد بدأ يطغى .

قبل شهور من اغتياله أعلن السادات أنه باع لأمريكا أسلحة سوفيتية ليحارب بها المجاهدون الأفغان نظام الحكم الشيوعى هناك .. تصور البعض أن هذا الإعلان قد أضر بالسياسة الأمريكية . وتصور البعض أن السادات على هذا النحو ــ وبعد أن غضبت أمريكا ــ قد أصبح شخصا لايطمأن إليه من جانب الأمريكان . لكن هذا الرأى لايمكن التعويل عليه بمسلماته لأنه ربما كان السادات بما فعله موجهاً إليه لتسمعه روسيا لحساب توازنات وصراعات دولية وللتدليل على أن الأمريكان من جانب آخر يدفعون ثمن أسلحة يحارب بها أصحاب قضية .. تأخذ طابعا دينيا .

فى أول مايو ١٩٨٠ قال السادات إنه مسلم ورئيس دولة إسلامية . وتشبه فى الخطاب بعمر بن

الخطاب . ومرة أخرى بعلى بن أبى طالب . هذه المقولة حللت .. ودرست وبعناية فى كل دولة يهمها ما يدور فى مصر ...

فى الغرب يفهمون هذا بأن معناه أن للأقليات الأخرى الدينية أن تأخذ الموقف الذى تحمى به نفسها وهو ادعاء وإن كان لايفهم حقيقه الإسلام ، إلا أنه يصل عندهم إلى حد اليقين .

لكن الإسرائيليين والأمريكان فهموا اللعبة تماماً . فهموا أن ما قاله السادات هو محاولة من جانبه . أو هى رسالة بمعنى أصح للمتدينين المسلمين وليست للأقباط . وفهم منها أنه لايستطيع أن يعمل ضد قوة إسلامية[11] لأن السادات فى نفس الوقت هو الذى سمح بإقامة كنائس بلا أى شروط . وسبق له أن أرسل للجاليات المصرية المسيحية التى تعيش فى أمريكا تعهداً أنه لن يطبق أبداً الشريعة الإسلامية .

إن لعبة الفتنة الطائفية لم تظهر أبداً . لم يكن لها وجود إلا فى عصر السادات . بماذا يمكن تفسير انفجار كنيسة فى يوليو ١٩٨١ ليلة سفره إلى أمريكا . ربما كانت رسالة يتعمد بها أن يطلب دعماً فى مواجهة المسلمين المتعصبين . حادث الزاوية الحمراء ولم يكن فى حقيقته إلا نزاع عادى يمكن أن يحدث بين مجموعة من المسلمين . لماذا تم تصويره على أنه فتنة طائفية . لقد تحول الحادث بفعل بعض رجال السلطة فى نهايته إلى فتنة . ربما كان السادات قد استشعر أن ما طلبه من الجماعات الإسلامية قد استنفد . وفى رأيى ـــ بخلاف البعض ـــ أنه كان يكفى تهديد السادات بقطع القروض الأمريكية أو تخفيضها . ليسير فى الطريق السليم .. والمرسوم .

صحيح بعض الصحف الأمريكية بعد وفاة السادات قد نشرت عنه ما يدينه ، مجلة تايم نشرت قائمة بممتلكاته وزوجته ...

الواشنطن بوست أيضا قالت : إنه كان عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية ونشرت وثيقة تؤكد ذلك .

بعض الصحف الأخرى وصفته بأنه متقلب ... وأنه ليس له أمان ودللت على ذلك من تاريخه ....

ففى يناير ٨١ ألقى السفير الأسبق فى القاهرة (اليوتس) محاضرة فى إحدى الجامعات الأمريكية وقال فيها إن السادات ممثل كبير .. وأنه ينسى نفسه عندما يندمج فى الدور . وأنه يمكن أن يعود فى لحظة لأحضان السوفييت . وأمريكا تخسر كثيرا باعتمادها عليه . ونشر ملخصا لهذه المحاضرة فى مجلة السياسة الدولية فى القاهرة وقبل وفاة السادات .

لقد حققت أمريكا من خلال السادات ما لايمكن أن يتصور أحد أنه كان يمكن أن يتحقق فى يوم ما ...

وفى ٣/١١/ ١٩٧١ أمام مجلس الشعب قال السادات :

---

(١١) جريدة معاريف الإسرائيلية فى ١١/٩/ ١٩٨١ .

إن من أهداف أمريكا فى المنطقة عزل مصر عن الأمة العربية ونحن لانستطيع القبول تاريخياً ومصيرياً بمثل ذلك لأن مصر جزء من الأمة العربية قدراً ومستقبلًا .

وبعد هذا أصبح السادات ، ولاؤه كله لأمريكا التى عزلته عن العرب . وأصبح ولاؤه للشعب الأمريكى العظيم .

هل كانت فى الشارع المصرى قوى سياسية منظمة يخشى منها الوثوب إلى السلطة .. تنهى الوجود الأمريكى وتقضى على مصالحه ؟ !

المعارضة عموماً حتى مصر فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ لم تكن قد ثبتت أقدامها بعد فى الشارع السياسى . الإعلام الحكومى له تأثيره على نسبة كبيرة من الناس .

صحيح كانت هناك صحف تهاجم ، وتكشف الأخطاء .. وتقول ، لكن أهم ما فى العمل الحزبى أن تكون للحزب قواعده التى يمكن أن تعمل فى الشارع وتقود الجماهير لتحقيق ما يريده الحزب . وإلا أصبح ما تقوله الصحف ليس إلا دعوة غوغائية . كثير من المثقفين المصريين ابتعد عن الأحزاب واتخذ منها موقفاً سلبياً ... وذهب البعض منهم للقول بأن هذه الأحزاب ليست إلا ديكوراً صنعه السادات وبتوجيه أمريكى ...

ألم يصنع حزب مصر ... ثم عاد وصنع الحزب الوطنى الديمقراطى ليكون رئيساً له ويضم له كل أعضاء الحزب السابق تقريباً ...

حزب التجمع التقدمى الوحدوى . صحيح أنه تبنى سياسة متشددة من السادات ... لم يكن الحزب بكامله من العناصر الماركسية .. انضم له البعض منهم وبقى البعض الآخر فى خارجه لكن الحزب كان متصديا للدفاع عن أى ماركسى يتعرض للاعتقال . وهناك بعض الماركسيين استخدموا منابر الحزب لكنهم لم يوقعوا أبداً استمارة عضوية .. الحزب يضم فى صفوفه ناصريين . قوميين ... ورجال دين يطلقون على أنفسهم تقدميين ... لكن الحركة فى مجملها والقيادة فى حقيقتها للقوى الأكثر تنظيماً للماركسيين .

كانت مواقف الحزب منذ اليوم الأول ضد السادات وضد ممارساته بدءاً من الانفتاح .. وانتهاء بكامب ديفيد لكن هذا الحزب افتقد للأسف قدرة العمل وسط الجماهير كان يكفى إطلاق تعبير الشيوعى على أى عضو من أعضاء الحزب ليخاف الكثير من الجماهير ... وما أكثر ما صودرت جريدة الأهالى ... ووجدت القاضى الذى يؤيد المصادرة وبأسباب هى فى حقيقتها قذف فى حق الحزب لا أسباب قانونية . وفيما بعد يعين القاضى مسئولا عن العدالة فى مصر .

الحزب الثانى كان يمكن أن يقال فيه أنه ملكى أكثر من الملك نفسه . رأسه أحد الضباط الأحرار . لكنه اتخذ من الهجوم على عبد الناصر وسيلة للانتشار ففشل . كانت جريدة الأحرار فى بعض الأحيان تهاجم الحكومة وحزب الحكومة ... وتفتح صفحاتها لبعض القوى الوطنية لتقول ماتشاء ... لكن الحزب

انتهى بمشاركة رئيسه السادات فى رحلته للقدس ولم تكن قواعد الحزب إلا موظفى الشركة التى يرأسها رئيسه وهى شركة قطاع عام . ولم تكن كوادره بأكثر من مديرى عموم هذه الشركة ...

وتشكل حزب الوفد الجديد ... وبارك رئيسه عملية السلام .. لكن فيما يبدو لم يرق للسادات أن يكون هناك حزب يتبنى نفس خطه ويلاعبه على ذات الملعب الأمريكى بالذات وأن يقول رئيسه إنه باشا وابن باشا . ولد وفى فمه ملعقة من ذهب .

وما إن بدأ الهجوم من السادات على رئيس الحزب الجديد حتى فضل الحزب أن يعلن حله لنفسه وأن يبتعد حتى تحين الفرصة الملائمة .

صحيح لهذا الحزب وجود وسط الاقطاعيين القدامى وبقاياهم وبعض أغنياء الانفتاح وأدركوا بوعى صادق أن مصالحهم مع هذا الحزب الذى كان ذات يوم يضم كبار أغنياء مصر ... لكن الغريب أن عناصر الحزب لم تتهم أبداً وطوال حكم السادات بأى قضية سياسية من تلك التى اتهم فيها الناصريون أو الماركسيون ....

أما الحزب الأخير فلقد كان أكثر الأحزاب تعرضا للهجوم عليه من كثير من القوى الوطنية لظروف نشأته . ولكون السادات كان من ضمن مؤسسيه . وتصور الكثيرون أن هذا الحزب إنما جاء لتمثيل المعارضة التى ترضى عنها الحكومة . خاصة أن هذا الحزب كان أحدث الأحزاب الأربعة نشأة .

صحيح أصبح المهندس إبراهيم شكرى زعيما للمعارضة فى مجلس الشعب وبدأ أعضاء الحزب يناقشون ... ويصوتون من الحكومة ويتقدمون بمشروعات قوانين مضادة . وجاءت اتفاقية كامب ديفيد وأعلن الحزب تأييده لها فى تحفظات ... ولم يكن هذا مرضيا لكثيرين .

لكن سرعان ما غادر الحزب كل الذين دخلوه بضوء أخضر من السادات بعد أن أصبحت جريدة الشعب تنافس جريدة الأهالى فى إدانة سياسات السادات .. وعندما رفع أول علم لإسرائيل فى القاهرة كان حزب العمل الاشتراكى يرفع فوق مقراته وتصدر جريدته وصفحتها الأخيرة عليها علم فلسطين ومانشيت يقول مليون علم فلسطينى فى مواجهة علم اسرائيلى . وأصبحت الجريدة ندوة مفتوحة لكل القوى السياسية المصرية ... ومقر الحزب منبر لكل القوى لتقول رأيها . وتصدر جريدة الشعب عدداً خاصاً عن نقابة المحامين تكشف فيه حقيقة ما حدث فى ١٩٨١/٦/٢٦ . وسرعان ما أصبح ابراهيم شكرى يقذف بأعنت الألفاظ من عناصر الحزب الوطنى داخل مجلس الشعب وفى جلسات تذاع على الهواء . واتهم السادات ابراهيم شكرى بنكران الجميل وأوقعت به بعض اعتداءات مادية من قبل عناصر الحزب الوطنى والبلطجية وبتشجيع من جهات الأمن .

لكن هذا الحزب أيضا لم يكن قد خلق لنفسه بعد قواعده المنظمة وكوادره التى يمكن أن يغير بها فى الشارع . وإن كان رضا الجماهير عن الحزب قد بدأ يتزايد وهذا وحده لا يكفى .

ويبقى هناك التيار الدينى والتيار الناصرى ..

الإخوان المسلمون يعتقدون بأن لهم حسابا مع عبد الناصر والثورة ، ينبغى تصفيته ... لكنهم فى نفس الوقت كانوا قد وعوا الدرس .... درس الصدام مع السلطة ....

وبدأت خطوات محسوبة ... ومدروسة تقول بالاكتفاء بالدعوة الإسلامية وإنشاء بعض مشروعات اقتصادية بقدر ما يمكن للإنفاق منها على الدعوة ... وليوم آخر يأتى فيما بعد .

وبدأت مغازلة أنور السادات ووعد بتسليم الإخوان مقر جماعة الإخوان ... وسمح بإعادة صدور جريدة الدعوة لسان حال الإخوان المسلمين وبدأت فى العودة الطيور المهاجرة منهم ... عادت بأموالها ... وأقيمت مشروعات ... ابتداء من مزارع الدواجن إلى شركات الأموال ... إلى الآيس كريم والجاتوه ....

وبدأت دعوة المرشد العام الجديد للإخوان المسلمين لعقد لقاءات مع السادات ... أعلن عن بعضها ...

وخرجت كتب تحمل أغلفة إسلامية ... وتهاجم فى ضراوة ... وبعمق عبد الناصر ... ومعتقلاته ... وكل تجربته ... وخرجت ادعاءات كثيرة ساهمت بالفعل فى تشويه صورة عبد الناصر والثورة ... ساندت هذه الادعاءات حملة منظمة ومتفق عليها من دعاوى التعويضات أمام المحاكم المختلفة عن التعذيب الذى جرى فى السجون ... وصدرت بالفعل أحكام نشرتها مجلة الدعوة ... ونشرتها جريدة الأحرار ... ونشرتها بعض الصحف القومية كجريدة الأخبار ...

وقد يقال فى نظر البعض ــ إن هذا الأسلوب لا يبنى حزبا ... أو لا يدعم أركانا ... وكانت وجهة النظر الأخرى أن ما يتم هو الصحيح .. هناك عشرة ملايين على الأقل لم يعيشوا تجربة عبد الناصر ... لأنهم كانوا بحكم السن لا يدركون شيئا ... وهناك من وقف من حيث لا يدرى حتى ولو كانت مصلحته مع الثورة ضد هذه الثورة .... كان مهما أن يتم الانقضاض على الثورة ورموزها والتضخيم بقدر الإمكان فى السلبيات .. أليس هناك من يدعون أنهم يعتنقون الناصرية ؟.. ويدافعون عن التجربة .. وهم خصوم سياسيون ؟.. إذن فإن من المصلحة أن يتم تصفيتهم سياسيا .

وكان الخطأ الوحيد أن الإخوان قد حملوا كل من يدعى بالناصرية وحتى ولو كان فى أشد المواقف معارضة لنظام السادات ، مسئولية كل ما نسبوه لعبد الناصر والذين كانوا يحكمون معه .

أيضا هناك الشيوعيون ... وهم الملحدون فى نظرهم ... ومحاربتهم يجب أن تبدأ من الآن ...

ولم يقبل كثير من الإخوان للأسف الانضمام إلى أى جبهة من الجبهات التى تألفت وكان من انضم منهم يقرر انضمامه بشخصه ....[١٢] .

حتى فى القضايا السياسية التى يتهم فيها كل من ينسب إلى الاتجاه الدينى كان غير مقبول أن يتواجد

---

(١٢) كالأستاذ / محمد المسمارى وكيل نقابة المحامين فى ذلك الوقت .

فى المحكمة محام بخلاف من هو عضو فى الإخوان المسلمين ، كذلك لم يكن مقبولا أن يحضر أحد منهم فى أى محاكمات أخرى يتهم فيها أى اتجاه سياسى من الكفار[١٣] ! .

وكان الانطباع السائد لدى البعض أن كل الجماعات الإسلامية هى الجناح الشبابى للإخوان المسلمين ... كانت تحركات بعض الإخوان فى القضايا التى بدأت أو الاعتقالات التى كانت تتم لبعض عناصر الجماعات الإسلامية توحى بهذا .

لكن كانت هناك حقيقة تقول إن تكوين هذه الجماعات قد تم بعيدا عن الإخوان المسلمين .. كان وجودا مسموحاً به أعد له مكتب فى كورنيش النيل ابتداء من سنة ١٩٧٤ ... ومقاول يتولى الدعم المالى ... ومدن جامعية يسمح بفتحها فى الصيف لاتجاه آخر بخلاف أعضاء التنظيم الحاكم فى ذلك الوقت .

كان لهذه الجماعات هدف ... وطريق مرسوم بعناية ... وجهاز خاص يوجه ويدير ...

كان الهدف .. تنفيذ وعد قطعه السادات بالقضاء على أى أثر لعبد الناصر .. ضرب كل من يدعى ... أو يحاول الادعاء بأنه ناصرى .. أو ماركسى ... بعد أن كانت المظاهرات الطلابية والتى حركها هذان الاتجاهان قد وصلت مبكرا إلى صدام شخصى مع السادات .. والتعرض له .. ولحياته ... وزوجته التى لم يكن قد أطلق عليها بعد سيدة مصر الأولى .. كان هذا فى نوفمبر ١٩٧١ ويناير ١٩٧٢ . وكانت قد فشلت كل اللقاءات التى رتب لها مع الطلبة ... وقف الطلبة يناقشون السادات فى عام الحسم .. وعام الضباب .. وغيرها من الأمور ... واتهم وقتها الطلبة من قبل أجهزة مسئولة أن الطلبة يخشون استمرار حالة اللاسلم واللاحرب حتى لا يتم تجنيدهم وارسالهم على خط القناة مع من سبقوهم إلى ما يشاء الله ..

كان الأسلوب واحدا تقريبا ... تمزيق مجلات الحائط التى يصدرها التقدميون ... التصدى لأى تجمع ... اقتحام أندية الفكر الناصرى التى كانت قد بدأت تعمل فى أغلب الكليات ... إطلاق تعبير « الشيوعيون » أو أذناب مراكز القوى ثم التصدى باستعمال التسليخ الشخصى وكان عبارة عن مطواه ... ولم يحرر أبداً محضر واحد ضد أى طالب من هؤلاء ... واتسعت الجماعات الإسلامية ... بدأت تخرج فى تجمعات صغيرة لأداء شعائر صلاة الأعياد ...

وفجأة ... قبل السادات بحضور شاه إيران لمصر ... وبدأ التضييق على الجماعات الإسلامية ... « العيال كبرت » ويمكن أن يظهر خومينى ... ألم يكن هو ذات الأسلوب الذى اتبعه الشاه فى ايران عندما أنشأ حزبا أسماه الحزب الديمقراطى !! وكان أول ملك فى التاريخ ينشىء حزبا رسميا وبشكل علنى ؟!

تمردت الجماعات الإسلامية ... انقلبت على السادات ... كيف يسمح بحضور الشاه إلى

---

(١٣) هذا الموقف حتى أحداث سبتمبر سنة ١٩٨١ .

القاهرة ... وخرجت بعض مظاهرات فى المنيا وفى أسيوط ... وتعاملت معها الشرطة بعنف ... وتم القبض على البعض ... لكن لم تحرك قضايا ضد أحد ...

تطورت الجماعات الإسلامية ... شعرت أنها أصبحت قوية ... بدأت تتصدى لبعض التصرفات الشخصية لبعض المواطنين الذين تصوروا أنهم يمارسون حرياتهم ... بدأت تمنع عرض الأفلام فى الجامعات ... بدأت عناصرها تعتلى منابر المساجد فى مناسبات دينية مختلفة ... وبدأت تظهر منشورات تحمل توقيع الجماعة الإسلامية .

فى سنة ١٩٨١ بدأ تطور جديد .. لافتات وملصقات بالشوارع والميادين ... على السيارات الحكومية والاتوبيسات ... فى القطارات ابتداء من الأسبوع الثالث من شهر رمضان تدعو المسلمين للخروج فى جماعات لتأدية صلاة العيد فى الخلاء .... إنها سنة ... والشعب مسلم ..

وكان العيد ... عيد الفطر .. وشهدت كل الميادين الرئيسية فى أغلب المدن تجمعات هائلة من أصحاب الجلاليب البيضاء والطاقية البيضاء ... وفى ميدان عابدين بالقاهرة تجمع الآلاف . وخرج أول منشور سياسى من الجماعات الإسلامية يدين الصلح مع اسرائيل ... ، كانت مجلة الدعوة قد نشرت رأى الإخوان .. الذى يرفض المعاهدة :..

وبدأت بعض المساجد تدخل فى الموضوع ... الشيخ كشك بدأ وفى عنف .. الشيخ المحلاوى .. الشيخ المطراوى ... وغيرهم الكثير ... وبدأت الجماهير تحتشد فى مثل هذه المساجد .

واختلطت المسائل عند الكثيرين ... « الإخوان ... الجماعات الإسلامية ... شيوخ المساجد الذين لم يكونوا فى ذات يوم أعضاء فى أى تنظيم » .. بدت الصورة عند الكثيرين غير واضحة ... كله اتجاه دينى ... خيط رفيع يفصل بين الاتجاهات ... هل الإخوان استطاعوا أن يسرقوا الجماعات الإسلامية من أنور السادات ... ومن جهاز المتابعة حتى مباحث أمن الدولة ... ؟! أم أن الإخوان شىء آخر وينسبون لأنفسهم ما ليس منهم ؟! ... ولم يكن أحد يعرف الحقيقة ... حتى ما قيل بعد ذلك على لسان بعض المتهمين من الجماعات الإسلامية أثناء تحقيقات القضية من اختلافهم فكراً وأسلوباً .. وقيادة ... ومن رفضهم لقيادة الإخوان حتى هذا ليس مؤكدا .. ربما تكون إجابات ذكية الهدف منها إبعاد الشبهة[١٤] .

لكن هذه الجماعات ... (الجماعات الإسلامية) لم تكن مجموعة واحدة ... كانت هناك خلافات ... صحيح لم تظهر إلى السطح أبداً لكن لا يمكن القطع كذلك أنها خلافات حقيقية ... لكن المقطوع به .. وبالدليل المادى أن هذه الجماعات لم تكن لتستطيع وحدها أن تكرر ما حدث فى

---

(١٤) فى قضية الجهاد ــ فيما بعد ــ أعلن المتهمون بعد مرافعات بعض من المحامين أعضاء جماعة الإخوان أن ما قيل لا يمثل فكرهم ، ورفض البعض كذلك أن يترافع عنهم البعض من هؤلاء المحامين ، على اعتبار أنهم تراجعوا فى قضية الأبا ضنودة التى كانت تنظر أمام مجلس الدولة .

إيران .. جميعهم مسجلون فى الأمن ... معروفون تماما ... ومرصودون دائماً . على الأقل بقيادات الصف الأول منه أو الصف الثانى والذين يمكن أن يقال بتأثيرهم[١٥] ...

إلا أن الملفت للنظر أن كل هؤلاء الشباب كانوا يكرهون إلى حد التحريم كل ما يرتبط باسم عبد الناصر ولدرجة معها أن ينسب لبعضهم مثل عبد الحميد عبد السلام (المتهم الثانى) وعاصم عبد الماجد المتهم السابع أنها تابا وأنابا عن كفرهما وأصبحا مسلمين بعد أن تخليا عن فكر الناصرية الكافرة !!

وصحيح أن بعضهم يقول إنهم استفادوا من تجربة الإخوان وتعلموا منها فى حين أن الإخوان لم يستفيدوا من أخطائهم .. وأنهم ــ أى الجماعات الإسلامية ــ وضعوا كل الاحتياطات التى تمكنهم من أن لا يقعوا فى ذات الاخطار ..

إلا أن الصحيح فى ذات الوقت ورغم الخلافات الحادة فى الاجتماعات والندوات التى كانت تتم بين بعض القيادات من الإخوان والجماعات الإسلامية . إلا أن الغالبية من هذه الجماعات تتبنى أفكار وتوجهات سيد قطب الذى يعتبرونه شهيدهم ... فهل كان المرحوم سيد قطب بعيداً عن الإخوان !!

نستطيع أن نقول باستعمال تعبير سياسى : إن خطر الجماعات الإسلامية لم يكن خطراً آنياً ... أو بمعنى أصح لم يكن العمل بعد قد اقترب حتى من مرحلة البداية .

ويتبقى الناصريون .

والناصريون ... مشكلة ....

استطاعوا أن يفصلوا فيما بينهم وبين الشيوعيين والماركسيين فى نظر القوى السياسية الأخرى .... واستطاعوا أن يكون لهم ما يميزهم ... بدأت أندية الفكر الناصرى فى الجامعات المصرية :.. فى القاهرة وعين شمس أكثر تركيزا ...

استطاعوا أن يكون لهم احتفال رسمى كل عام فى ذكرى وفاة عبد الناصر ولمدة تقرب من أسبوعين فى جامعة عين شمس ... تحولت احتفالاتهم من التمجيد لعبد الناصر والرد على الخصوم وتفنيد ادعاءاتهم إلى معاداة النظام الذى يمثله السادات ومواجهته . وعند هذه النقطة وبعد أحداث انتفاضة يناير ١٩٧٧ بدأ الهجوم من قبل السلطة يأخذ شكلا ضاريا ، وبدأ منع هذه الاحتفالات بكل الوسائل والسبل ... وبأمن مركزى يحاصر المدينة الجامعية فى عين شمس ...

وبدأت مرحلة جديدة ... بدأوا يدخلون السجون ... ويتعرضون للتعذيب .. ورأى البعض منهم أن يناضل فى الخارج ... أو يناضل بمعنى أصح من الخارج ...

---

(١٥) أثبتت محاكمات الجهاد ــ فيما بعد ــ رغم أنه تم تقديم ٣٠٢ متهمين ، أن نسبة كبيرة من هؤلاء لم يكن لهم علاقة تنظيمية أو شبه تنظيمية من الجماعتين الرئيسيتين اللتين انتهى الحكم إلى تحديدهما ... مجموعة محمد عبد السلام . ومجموعة محمد سالم وحال ... لكن ليس هناك ما يمنع أن يقال أن طول فترة الحبس والاعتقال وما صار فيها من تعذيب وتنكيل بالجميع بلا استثناء وهو ما أثبته الطب الشرعى قد خلق منهم مجموعة واحدة .

تصور البعض منهم أن الناصرية وهى تحمل مضمونا قوميا ... فإنه يمكن أن يكون هناك التنظيم القومى أو على الأقل الجسور بين التنظيمات والأحزاب الناصرية فى بعض الدول العربية ومصر ... وتناسى هذا البعض ـــ وربما كان هو الصحيح ـــ أن الناصرية إذا كانت قد بدأت من مصر . فإن تنظيمها يجب أن يبدأ من مصر أساساً ... وكان من شأن هذا أن نسب إليهم ما يمكن ألا يكون صحيحا من دعم يتلقونه من الخارج ...

لم يستطع الناصريون أبدا أن يوحدوا أنفسهم ، كان الصراع على القيادة هو الحاكم بالنسبة لهذه المسألة ...

وفشلت كل المحاولات فى أن يعلنوا ـــ ولو من قبيل التحدى ـــ عن حزبهم فى حضور السادات ... فى ظل حكم السادات ... لينفوا عن أنفسهم ما يقال أنهم لا يؤمنون بالديمقراطية الحزبية ... وكانت وجهة نظر الرافضين أن السماح بتكوين حزب فى ظل حكم السادات من شأنه الإقرار باللعبة التى يلعبها السادات ... وإنهم لا يقبلون أن يكونوا ديكورا ، وكان هذا يناقض محاولة سابقة لهم سنة ١٩٧٦ فى تكوين المنبر الناصرى عندما دعا السادات إلى تحويل الاتحاد الاشتراكى إلى منابر ... ولم يكن هذا مسموحا به وتدخل السادات ليقول : إنه لن يسمح إلا بتكوين ثلاثة منابر لليمين والوسط واليسار وهى التى تحولت فيما بعد إلى أحزاب الأحرار ومصر ... والتجمع ... وكانت هذه المحاولة من السادات لإجهاض فكرة أن يكون للناصريين منبر ...

وانضم البعض للتجمع ... لكنهم فى نظر القطاع العريض من الناصريين أصبحوا ناصريى التجمع ... وأنهم فى انضمامهم للتجمع قد يفقدون التمايز المطلوب وقد يقعون فى عملية تأثر فكرى بالماركسيين .

الناصريون لم يتغيبوا أبدا عن أى عمل جبهوى ... بل كانوا دعاة لكثير من المواقف التى تجمع بين كل الاتجاهات السياسية بما فيها من الإخوان ، وظهر هذا واضحاً من نقابة المحامين ... لكنهم كانوا يتحركون كأفراد .. لا كتنظيم أو حتى تنظيمات ..

البعض يرفض أن يعمل بالناصرية ، كل من شارك من قبل فى الحكم إبان فترة عبد الناصر حتى لا يحملوا أوزارا قد تنسب لهؤلاء ... بل إنهم يعادون كل من ادعى أنه ناصرى وقبل التعامل مع السادات حتى ولو كان قد انفض عنه فيما بعد ...

والبعض الآخر يقول بتواصل الأجيال ... والخبرة ... وإن من ظلموا بأحداث الثورة المضادة فى ١٥ مايو يجب أن يرد لهم اعتبارهم .. وإنه تحد ينبغى قبوله ... وحمله على أكتافهم ...

البعض يدافع عن التجربة الناصرية بانفعال ... يرفض أى نقد يوجه .. يرفض أى قول بسلبيات ... والمساس بشخص عبد الناصر هو مساس بالناصرية ...

والبعض يقول إنه طالما لم تكن فى الحكم فأنت لست مسئولا عن سلبيات ... وإن كل تجربة لها إيجابياتها وسلبياتها .. شأن أى تجربة وعبد الناصر كان يؤمن بالتجربة والخطأ .

البعض يحارب أمريكا ويطرح البديل روسيا .. ويذكر بالسلاح الروسى والمصانع الروسية ... ويتكلم عن حركة التحرر العالمى ... وهو عندما يقول بذلك يخسر سياسيا لأنه يعنى ببساطة ـــ أمام رجل الشارع ـــ استبدال أمريكا بروسيا ... وهو أمر يخالف فكرة القومية العربية والامكانيات العربية القادرة على أن تخلق دولة واحدة لها شأنها ...

البعض يرفض البعض ... لكن عند العمل الكل واحد .... ويبقى الخلاف فى الخلف ...

لكن الحقيقة كانت تقول أن هناك أصواتاً ناصرية ، تصدت وبعنف لكامب ديفيد . ومن قبلها للانفتاح ... ولمكتسبات الثورة ... لكن للأسف لم تكن هناك قدرة ناصرية ... أو قوة ناصرية ... لم تكن هناك القواعد ... أو الكوادر الحزبية التى يمكن أن تؤثر فى الشارع وتقوده ، والناصريون أنفسهم حتى سبتمبر ١٩٨١ ، كانوا يعتبرون أنهم فى مرحلة الفرز والانتقاء ... وأن هذا لا يتأتى إلا بالممارسة والنضال ...

ولكنهم بالفعل لم يمثلوا ... أو لم يخلقوا الخطر الذى يخشى منه على السادات ...

□□

ماذا بعد ؟!

فى ١٨ يناير ١٩٧٧ كان السادات باستراحته فى أسوان ... إحدى الاستراحات العديدة التى كان ينتقل إليها لدرجة قيل معها أن لا أحد يعلم ـــ حتى من المقربين منه ـــ أين يبيت السادات ليلته ؟ أو أين سيقدم له فطوره المكون من غذاء ملكات النحل وفطيرة التفاح التى تصنع خصيصا له ، ومن دقيق خاص يرد من سويسرا والذى قيل أنه يتكلف تقريبا ٦٠ جنيها مصريا بحساب ذلك الوقت ... أو كلبه الوولف الأمين والذى قيل فيما بعد على لسان زوجته جيهان إنه كان المخلص الوحيد له والذى قتله الحزن على سيده ربما لأنه حرم أيضا من قطعتى البوفتيك الخاصتين اللتين كان السادات يرى سعادته البالغة فى اطعامهما له صباح كل يوم بيده .

كان السادات يجلس مع صحفية فرنسية يحكى لها ذكرياته ... وكيف أنه أشيك رجل فى العالم .. وكيف أن شعبه يحبه لأنه أنقذه من اشتراكية الفقر .. وأنهى الأحقاد التى ورثها عن سلفه ... وكيف أنه كبطل انتصر فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، يعد آخر الفراعنة العظماء ... فجأة سرح السادات كعادته إلى الفضاء .... لعله كان يستلهم الوحى .... فلقد كان يزعم أنه يوحى إليه ... وقبل وفاته قال « أنا لا يبدل القول لدى ... » وفجأة لمحت الصحفية عموداً من الدخان على البعد فى أسوان ... ، تصورت إن السادات يطيل النظر إلى حيث هذا الدخان فسألته ...

ـــ سيدى الرئيس ماذا ستفعل إزاء هذه المظاهرات ؟!

وأجابها الرئيس بحدة وباستنكار من أين استقت هذه المعلومة ... اندهشت الصحفية ... وتصورت أن الرجل يتحداها ... فسألته إن كانت أجهزة أمنة لا تنقل له الحقيقة !

احتد الرئيس : رجالى لا يخفون عنى شيئا ... أية مظاهرات تقصدين .

وقالت الصحفية : مظاهرات الشعب فى القاهرة .. وفى الاسكندرية ... حتى هنا فى أسوان يا سيدى الرئيس ..

ـ وقال الرئيس تقصدين: الشيوعيين .

ـ هل الشيوعيون هم الذين قاموا بكل هذه المظاهرات يا سيدى الرئيس ... وكانت أصوات الطلقات النارية قد وصلت إلى أسماع السادات .. وكذلك صوت القنابل ... وهتافات انعكست فى سطح السماء وعادت إلى أذنيه لكنها لم تكن واضحة ...

وأنهى السادات المقابلة ... وطلب توصيل الصحفية وتأمينها ... وسأل عن الحكاية ... وعرف أن هناك مظاهرات ضخمة تحاول الوصول إلى الاستراحة ... وشرح له حراسه أسباب المظاهرات ... الناس تظاهرت لأن الحكومة رفعت الأسعار مساء أمس ... كان قد زيد ثمن رغيف الخبز إلى الضعف .. إلى قرش صاغ ... وكأن الناس خرجت لتردد الآية الكريمة :

« ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » صدق الله العظيم[١٦] .

قيل إن السادات طلب طائرته على عجل ... الطائرة التى كان قد أهداها له نيكسون فى أول زيارة له للقاهرة ... وهبط بطائرته فى مطار دراو[١٧] ...

هناك وجد بعض الضباط فى انتظاره .. ما إن هبطت الطائرة حتى هرعوا إليه ... ربما فاجأهم أن السادات لم يكن قد تمكن من خلع جلبابه ، وربما احتاروا هل يؤدون التحية العسكرية له ؟! ... سمعوه يقول لهم : إنه كان مخلصا لوطنه ... وإنه خدم شعبه ... وأحب مصر .. وطلب منهم أن يراعوا ذلك ...

نظر الضباط لبعضهم ... ماذا يقول الرجل .. ربما علت الدهشة وجوههم ... انتبه السادات ... أدرك أن الأمور مازالت بيده .. إن الضباط خرجوا لاستقبال طائرته بمجرد أن رصدوها واتصلوا بقائدها ... أو اتصل بهم لتأمين نزوله ...

ضحك السادات ضحكته العالية المشهورة ... وبتأتأة مرسومة ... أفهمهم أنه وضعهم فى امتحان ... امتحن وطنيتهم وحبهم لمصر واخلاصهم لبلدهم وشكرهم على هذا الموقف العظيم ...

واستقل طائرته البوينج إلى حيث استراحة برج العرب ... ومن الطائرة طلب تأمين المنزل فى القاهرة حيث سيدة مصر الأولى ... وحيث أولاده منها ...

ما قيل فى هذه المظاهرات على مدى يومين ... عنه .. وعن زوجته .. وعن أولاده ...

---

(١٦) الشعراء ١٥١ ، ١٥٢ .

(١٧) أحد المطارات العسكرية جنوب أسوان .

الأزجال التى ألقيت ... الشعارات التى رفعت ... صور عدوه عبد الناصر التى ملأت كل مكان ... النداء لعبد الناصر أن يعود ... وأن ينقذ الشعب من ...

كل هذا كان مهينا ... كان صعبا على الرجل ... ويقال إنه من يومها بدأ يتعرض لنوبات من المرض الهيستيرى ... وإنه فيما بعد وطوال السنوات الباقية من حكمه كان يصاحبه أحد الأطباء المتخصصين فى الطب النفسى حتى فى رحلاته الخارجية ليلاحقه بحقنة متى استدعت الحالة ذلك ... وكان هذا الطبيب قد تم رصده فى إحدى رحلات السادات الأخيرة له للسعودية إلى أن عرف الأمير فهد فى ذلك الوقت سره ....

وبعيد عن الاحتمال أن تكون الولايات المتحدة بعيدة عن العلم بهذا ... فهل يمكن أن يقال إنها تخلصت منه لهذا السبب . أو مهدت الطريق للتخلص منه ، بعد أن كان قد وصل إلى مرحلة مخيفة بعد قراراته فى سبتمبر ١٩٨١ .

□□

بعد حرب أكتوبر مباشرة وبدءاً من سنة ١٩٧٤ بدأت بعض الصحف القومية فى مصر تتحدث عن أحلام ... أحلام سيتم تحقيقها فى مصر ... المونوريل ... وهو قطار يسير على عمود بارتفاع يعلو عن سطح البحر .. عن مدن .. عن مدارس ... عن شركات ستجعل الطعام بالنسبة لكل مصرى بسعر التراب ... كل هذه الاحلام ستتحقق فى ظل السلام بعد أن انتهينا من الحرب .. لكن لم يقل واحد وقتها .. مسئول واحد ساعتها أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب ... كل ما كان يعلن وقتها أن مباحثات الكيلو ١٠١ بطريق القاهرة السويس ستنتهى إلى ما يشبه الهدنة ما بين مصر وإسرائيل .. وسحب القوات المتحاربة إلى نقاط متفق عليها ما بين الدولتين .

كان المبشرون بكل هذه الأحلام يقولون بأن الذى سيحققها لمصر هى الولايات المتحدة الأمريكية .. بالمعونات الأمريكية .. والهبات الأمريكية .. وخاطبوا بطن الشعب ، ولم يدرك أحد وقتها إلا أن ما يقال ربما يكون مجرد آراء أو أحلام تمثل فكر أصحابها ، ولم يدرك أحد أنه كان تخطيطاً ذكياً للتمهيد لزيارة نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لمصر ...

وحضر نيكسون ... واستقبله السادات فى المطار .. واستقلا سيارة مكشوفة قطعت شارع العروبة ! ووقفت قوات الأمن لتفصل ما بين آباء الشهداء وأمهاتهم ... وأهالى الجرحى والمصابين فى حرب أكتوبر ... وأهالى المفقودين والذين لم يكن قد علم عنهم شىء بعد ... وما بين الركب .. كان الجميع يردد هتافات منظمة بحياة السادات .. وحياة نيكسون !! وانتشرت اللافتات التى رسم عليها شعار اليدين المتعانقتين ... رمز الصداقة ... وأوقفت قوات الأمن كل العربات فى الطرق الجانبية وكنت واحداً من الذين يستقلون هذه العربات الميرى التى أوقفت ... وشعرت بغصة فى الحلق ... وبدمعة تتسلل من عينى ... وفى أعماق صوت يصرخ ... من هؤلاء الذين يهتفون ... وبصدق لم أفق إلا و « إمام » سائق العربة يسألنى عما قصدت بعبارة « يا ولاد الكلب » التى نطقت بها عفواً ...

واستمرت زيارة نيكسون لمصر ... الذى كان قد أرسل ابتداء من الثامن من أكتوبر الطائرات الأمريكية العملاقة بشحنات الأسلحة إلى مطار العريش المصرى لنجدة القوات الإسرائيلية ... والذى أمر بنقل ـــ ابتداء من ١٠/٢٢ ـــ بعض عناصر من قوات أمريكية تواجدت فى منطقة الثغرة على أبواب الاسماعيلية والسويس .

وتلألأت الأضواء فى قصر القبة ... ورقصت راقصتا مصر الأوليان فى هذا الوقت السيدتان نجوى وسهير ونقل التليفزيون الاحتفال بهذا العيد ... أو حفل العرس ... وخرجت الينا مانشيتات الصحف فى اليوم التالى تحدد أحجام المعونات ... والنعيم الذى ينتظر الشعب المصرى .. كما وعد به صاحب الفرح .. أو العريس نيكسون ...

وبدأت نغمة أمريكا .... ورغم أن الشعار الذى حملناه فى حرب أكتوبر كان الله أكبر ... وجدت نفسى أقارن بين موقفين عشتهما .... فى ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ عندما وقف البعض يقول من كانت روسيا معه .. فمن يهزمه ... وصرخت وصرخ معى البعض أنه لاينبغى أن ننسى الله ....

الآن فى ١٩٧٤ ها نحن ننسى الله ثانية ... ونفكر فى أمريكا التى ستحولنا جميعاً .. جميعا إلى أغنياء ....

وللأسف من يومها وجد الشعب طابوراً خامساً يردد وسطه ... ستعرفون الفرق بين روسيا ... وأمريكا ... والله يلعن من أبعدنا عن أمريكا ... فى الماضى ... وكان كل هذا خطوة على الطريق ....

إلى أن أوصلنا الرئيس المؤمن إلى القناعة بأن فى أمريكا ... فى يد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة ... والباقى من المائة .. الواحد الباقى هو إرادتنا .. وقوتنا ... وإيماننا بالله سبحانه وتعالى !!

بعدها كان منطقياً أن نسأل ... لماذا نزرع ... لماذا نقيم مصانع ... لماذا حتى نتعلم ... ولى أمرنا الجديد سيتكفل بكل شىء ... وأى شىء ... من رغيف الخبز اللازم لطعامنا ... حتى تسليح جنودنا ... وسنأكل جميعاً « العيش الفينو » والخبز الأبيض بعد أن قطع الخبز الأسود قلب الشعب المسكين ....

ورغم أنه بعد ثلاث سنوات فقط من هذه الزيارة أقدمت الحكومة مشكورة لمضاعفة سعر رغيف الخبز من خمسة مليمات إلى عشرة مليمات ربما لأنها أدركت أن قلة استيراد القمح الذى كنا قد صرفنا النظر عن زراعته قد تضاعفت أسعاره عالمياً !! ولم نع الدرس ... وكان المخطط أن يستمر اعتمادنا فى سلعة رئيسية على الولايات المتحدة الأمريكية !

وتغلغلوا فى داخلنا .... وفى كل شئوننا حتى أصبح تنظيم الأسرة جهازاً أمريكيا ... تعبيد طريق فى قرية مهمة أمريكية ... حتى بنوك القرى « بنوك التسليف » أصبحت تستعين بنجدة أمريكية رغم أنه لايوجد فى أمريكا قانون إصلاح زراعى ... وصغار منتفعين !!

أبحاث علمية مشتركة ... أبحاث زراعية مشتركة ... مناورات عسكرية مشتركة ... موظف أمريكى

بجهاز أمريكى يتولى رعاية شئون المعونة الأمريكية التى نكتشف أثناء المحاكمة أنها عمرها ما كانت معونة ... وأنها قروض تدفعها الأجيال الحالية . ويتحمل أمانة دفعها أولادنا وأحفادنا ...

وباتفاقية كامب ديفيد أصبح لأمريكا نقاط انذار مبكر فى سيناء ... ومطارات تستخدمها .. محرم على قواتنا المسلحة استخدامها ... محرم على الطيران المصرى المبوط فيها طبقاً لنصوص الاتفاقية .

وانتقل المركز الرئيسى للمخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط إلى القاهرة .. وأصبح مشاة البحرية الأمريكية ينعمون على كورنيش الاسكندرية فى عربات الحنطور المصرية ببعض الساقطات ....

ماذا تطلب أمريكا أكثر من هذا ....

مصر ... أصبحت فرعونية ... هكذا يقول السادات ...

العرب .. حفاة « جرابيع » تردد أجهزته ... فلسطين خضنا من أجلها أربع حروب وهم الذين باعوا أرضهم .. ليبيا هى الخطر الذى يواجهنا من الغرب ... وقام السادات بتأديبها !! روسيا ... الشيوعية أصبحت مهمتنا الرئيسية محاربتها فى المنطقة ... الشعب .. أصبح مربوطاً من رقبته أمام الجمعيات فى انتظار الفراخ الأمريكية والزبدة الأمريكية ... والتُبس الأمريكى ....

مصر ... أصبحت حتي النخاع أمريكية .... أصبحت ولاية .. ولاية أمريكية .. لكنها أفقر الولايات !! رغم التزامها بالانفتاح الاقتصادى ؟!

السادات يعلن أمام الشعب الأمريكى فى نادى الصحافة الأمريكى فى آخر زياراته أن ولاءه للشعب الأمريكي العظيم .... !!

ماذا بعد ...

هل كان هناك غير السادات من يستطيع أن يعطيهم كل هذا ... هل بمقدور أى حاكم آخر ..أى حاكم أن يقدم لهم ما قدم السادات ... أو أن يستمر فى عطائه لهم بنفس القدر ؟!

لقد سخر لهم ، وهو رئيس أكبر دولة عربية ، مما يسمى بالقومية العربية ... من كل الترهات التى تقول بوحدة عربية ... ماذا يريدون بعد ذلك ؟!

لقد حطم لهم ... أنهى لهم أسطورة عبد الناصر عدوهم اللدود والذى نجا من كل محاولاتهم لتصفيته ... ها هو السادات يصفيه ويصفى تجربته ... بل يحطمها ... ها هو السادات يسلمهم عرينه ...

ماذ بعد ؟!

تتساءل النيوزويك ... والنيويورك تايمز عن كيفية اغتيال السادات بعد أن تم تدريب قوات الحراسة الخاصة به على نظام الحماية المخصصة للرئيس الأمريكى .. وبعد أن تم تسليحهم بأحدث ما فى العصر من تكنولوجيا الحماية ... تكشف المجلتان الرقم الذى أنفقته أمريكا ٢٥ مليون دولار !!

كل قوات الأمن المصرية المخصصة لحماية الامن السياسى والشعب أصبحت مسلحة بأحدث ما فى العصر .... من أسلحة ... وعصا كهربائية ... ومصفحات !! .. أغلب ضباط الأمن السياسى والجنائى يرسلون فى بعثات إلى هناك ... إلى مراكز التدريب الأمريكية ...

فكيف ... كيف يقتل السادات ؟؟ !

هل يمكن أن يقال بعد هذا أن الرجل الذى صورته أجهزة الاعلام الأمريكية فى كل العالم على أنه رجل السلام ... والرجل الأمريكى الأول فى المنطقة ... والذى تسبغ عليه كل الحماية ... هل يمكن السماح بالتفريط فيه ... وبهذه الطريقة الدرامية لتكرر التجربة مع أى عميل أمريكى آخر فى أى دولة من دول العالم ؟!

السادات .. اعتقل ١٥٠٠ مواطن من المعارضين ... صحيح ..

السادات هدد باعتقال سبعة آلاف ... صحيح ..

السادات اعتقل الأنبا شنودة ... صحيح ...

السادات اعتدى على الكنيسة القبطية وهذا يضر بأمريكا دينياً .. صحيح ..

لكن أن ينتصر كل هؤلاء فى النهاية على السادات فإن أمريكا هى الخاسرة . وقبل السادسة من مساء ٦ أكتوبر ١٩٨١ كان كل المقيمين بمنطقة الأهرام يستطيعون أن يسمعوا وحتى طول الليل أزيز الطائرات الثقيلة فى الجو[١٨] .... والتى تأكد فيما بعد أنها طائرات أمريكية قدمت من قواعد الأطلنطى .... ومن سيناء لتنقل للقاهرة قوات أمريكية تحمى ما تبقى من سلطة السادات خشية أن يكون وراء الاغتيال عملية أكبر ... أو تصرف معين قد عمل حسابه ... ، كان هذا لازماً بعد أن قتل صمام الأمان لأمريكا فى القاهرة ....

.. هل كان من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية أن تضحى بصمام أمانها ... وإن كان .. هل انتهت كل الوسائل الأخرى لتكون النهاية بهذا الشكل الذى انتهى بمحاكمة صديقها وسياسته ... بدلا من محاكمة قاتليه ؟!

---

(١٨) قبل انعقاد مجلس الوزراء المصرى مساء ٦ أكتوبر كان ريجان الرئيس الأمريكى قد عقد اجتماعاً بالبيت الأبيض حضره مستشاروه وحضره الرؤساء السابقون ليكسون ــ فورد ــ كارتر وهم الذين حضروا مع وزير الخارجية الأمريكى جنازة السادات .